التشوف إلى رجال التصوف

وأخبار أبي العباس التبتي

منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
سلسلة بحوث ودراسات رقم 22

التشوف إلى رجال التصوف

وأخبار أبي العباس السبتي

لأبي يعقوب يوسف بن يحيى التادلي
عُرف بابن الزيات
617 هـ - 1220 م

تحقيق:
أحمد التوفيق

الطبعة الثانية 1997

الكتـــــاب : التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي.
المؤلـــــف : أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي.
المحقـــــق : أحمد التوفيق.
الناشـــــر : منشورات كلية الآداب بالرباط.
سلسلـــــة : بحوث ودراسات.
الغـــــلاف : إعداد عمر أفا.
الخطـــــوط : بلعيد حميدي.
الطبعـــــة : الثانية 1997.
الحقـــــوق : محفوظة للكلية بمقتضى ظهير 1970-07-29.
الطبـــــع : مطبعة النجاح الجديدة ـــ الدارالبيضاء.
الإيـــــداع : القانوني 1997/1756.
ردمـــــك : ISBN 9981-825-98-0.
التسلسل الدولي : 1113-0369.

طبع هذا الكتاب بدعم من برنامج التعاون
بين الكلية ومؤسسة كونراد أدناور

مقدمة الطبعة الأولى من تحقيق الأستاذ أحمد التوفيق

صدرت الطبعة الأولى من كتاب «**التشوف إلى رجال التصوف**» لأبي يعقوب يوسف بن يحيَى بن عيسَى بن عبد الرحمان التادلي المعروف بابن الزيات سنة 1958 ضمن مطبوعات معهد الأبحاث العليا المغربية (الجزء الثاني عشر) . وقد اعتنَى بنشر تلك الطبعة وتصحيحها أدولف فور Adolphe Faure الذي كان إذذاك أستاذا بمعهد الأبحاث العليا المغربية . وكان لهذا الباحث المقتدر اهتمام خاص بنصوص تاريخ المغرب الديني حيث اشترك مع الأستاذ محمد الفاسي بعد ذلك في تحقيق كتاب آخر في الموضوع هو «**انس الفقير وعز الحقير**»[1] لابن قنفذ القسنطيني .

وتشهد النشرة الأولى من **التشوف** على المجهود العظيم الذي بذله الأستاذ فور في مقابلة ثمان نسخ مخطوطة ترجع كتابة أقدمها إلى أوائل القرن الحادي عشر الهجري ، أي أنها متأخرة عن تاريخ كتابة الأصل بأربعة قرون كاملة . والواقع أن «**التشوف**» ، وهو يتضمن أخبار عدد من الرجال الذين تنتهي إليهم معظم الأسانيد الصوفية في المغرب الأقصَى ليس من نوادر المخطوطات بل كثر نقل نسخه بعضها عن بعض للخزائن الخاصة والموقوفة ، وكلما كثر النساخ ، ولاسيما لمثل هذا الصنف من النصوص التي لا يقتصر الاهتمام بها على خاصة الناس ، إلا وكثر الغلط والتصحيف ولاسيما في العجمي من أسماء الأشخاص والأماكن ، وما أكثرها في كتاب ابن الزيات الذي يتناول فترة دقيقة في التحول الثقافي بالمغرب الأقصَى ، تمتد بين القرن الخامس والقرن السابع للهجرة . وقد نتجت عن ذلك مشاكل هي مما يوهن قرن الوعل ، أدرك ذلك الأستاذ فور حيث قال في استدراكاته : «إن الأعلام البربرية في هذا الكتاب سواء كانت أعلام الأشخاص أو أعلام الأمكنة لعديدة جدا ، وضبطها ضبطا لا شك فيه ، مسألة يصعب حلها»[2] . لذلك لم

---

(1) ضمن منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي . 1965 .

(2) **التشوف إلى رجال التصوف** ، طبعة فور ، ص : 547 .

يجرؤ هو على اقتحام هذه المصاعب ، بل لم يحاول ذلك البتة إلا في جزئية صغيرة لا نظن أنه وُفق في اجتهاده فيها حيث قال : «فيما يخص الأعلام التي أولها ألف ، نظن أن الصواب أن تستبدل الألف المهموزة بالألف الممدودة ، مثل ذلك : أزمور ، أسني ، أغمات ، أمغار ...، الصواب : آزمور ، آسني ، آغمات ، آمغار ...» ولم يبين مستنده في ذلك الظن ، مع العلم بأن كل من يلم الماما بسيطا بلغة المصامدة يدرك أنهم لا يمدون الألف في تلك الكلمات ولا في مثيلاتها .

وها هي كلية الآداب تقدم اليوم وبعد ربع قرن من الزمن على نشر طبعة ثانية من كتاب ابن الزيات ، وأجدر بها أن تفعل لأنها وريثة معهد الأبحاث العليا لا في بنايته فحسب بل في تقاليده وما اضطلع به من نشر كتب التراث .

وقد نفدت نسخ الطبعة الأولى أو كادت ، وصار البحث عنها يزداد من قبل المهتمين بتاريخ المغرب عامة ، وبتاريخه الوسيط خاصة ، لا من زاوية التاريخ الديني فحسب ، على حد نظر أدولف فور ، بل حتّى من منظور التاريخ الكلي ، اجتماعيا وثقافيا ، فالنص يضم في ثناياه مادة حافلة مغرية يكاد يهم باستثمارها غير واحد من هؤلاء «القراء» الجدد . ويضم بين سطوره ما جعلهم يتمنون أن يتصدّى متصد لحل بعض مستغلقات النص في تحقيق أبعد غورا يقربه من تناول التحليل .

وكذلك أزمع الأستاذ العميد محمد القبلي أن يدرج إعادة طبع **التشوف** ضمن برنامج منشورات الكلية لسنة 1978 ؛ وكيف لا يقدر أهمية الكتاب وهو الباحث في تاريخ الغرب الإسلامي الوسيط . ولكن المال المرصود للمنشورات في ذلك العام ضاق عن تحقيق أمنيته ، ولما تفرغ للبحث وتولى العمادة بعده الأستاذ محمد حجي تتبع ذلك المشروع باهتمام مماثل ، والأمر ليس مما يختلف فيه باحثان . وظلت النية على أن يُصوَّر بالأوفسيت النص الذي اعتنى بنشره الأستاذ أدولف فور ، ولما أثيرت المسألة أثناء مناقشة برنامج منشورات الكلية لسنة 1982 ضمن اللجنة المختصة طُرحت فكرة مراجعة النص قبل إعادة نشره على ضوء بعض النسخ التي ظهرت في الخزائن العامة بعد عمل أ. فور . وما لبث الأستاذ العميد حجي أن أبدَى تحمسه لهذه الفكرة فكتب إلي تكليفا بذلك ، وظل يلح علي في إتمام هذه المراجعة في الآجال الإدارية المطلوبة ، ويشجعني لكي أسرع بالإنجاز ، لكن ، هيهات !

وشاء الله ألا تتم هذه الطبعة إلا والأستاذ حجي قد انصرف لمهام أخرى وخلفه في عمادة كلية الآداب الدكتور حسن مكوار وتقرر أن يقدم هذا النص للطبع في هذه السنة .

إن الذي جعلني أبحث في هذا النص وأركب مركبه الصعب هو قراءة متكررة لتراجمه عندما كنت أبحث في تاريخ هسكورة في العصر الوسيط تمهيدا لتاريخ قبيلة إينولتان في القرن التاسع عشر ، فكتاب «**التشوف**» يتضمن تراجم عدد من أتقياء المساكرة ، ولما راجعتها على ضوء التحريات الميدانية التي كنت مضطرا إليها تبين لي إمكان إصلاح بعض أسماء الأعلام وإمكان التعريف ببعضها الآخر ، وأدركت أنه لو وقع التوسع في البحث ليشمل مجموع المناطق التي ينتمي إليها المترجَمون في الكتاب لأمكن التعرف على مواطن جلهم ولكان ذلك إسهاما في توضيح جانب من خريطة المغرب الدينية وجانب من التاريخ الثقافي والاجتماعي للمدن والبوادي على العموم ، لأن بعض الرسوم ماتزال قائمة بالرغم من تبدل الأحوال ودروس الديار وعفاء الزمن .

إن بحثا متقدما في تاريخ الثقافة كفيل بأن يبين لنا الإقبال المتغاير الذي لقيه كتاب «**التشوف**» والأسباب المفسرة لذلك . ولما كان هذا البحث لم يُنجز بعد فإن هناك ما يجعلنا نفترض أن هذا الإقبال قد زاد في القرون الأربعة الأخيرة ، وحتّى إذا كان الذين جاءوا في القرون التي تلت وفاة التادلي قد تداولوا الكتاب ، بل وألّفوا على منواله من أمثال ابن قنفذ في «**أنس الفقير**» والبادسي في **المقصد**[3] : فيظهر أنهم لم يكن لهم اهتمام مناسب بالمؤلف نفسه ، بالرغم من ورود ذكره عرضا في بعض كتب التراجم **كالذيل والتكملة** لابن عبد الملك . أما المتأخرون فإذا ترجموا له نقلوا عن عالم التكرور أحمد بابا المتوفى في العقد الرابع من القرن الحادي عشر الهجري والذي ترجم للتادلي في كتابه «**كفاية المحتاج**»[4] حيث قال :

---

(3) **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف** ، لعبد الحق بن اسماعيل البادسي وكان على قيد الحياة سنة 722 ، نشر الكتاب مترجما إلى الفرنسية وعليه عدد من الحواشي المفيدة من طرف المستعرب جورج كولان سنة 1926 ، ضمن المجلد السادس والعشرين من سلسلة **Archives Marocaines** التي كانت تصدر بباريس ، ونشر النص العربي مؤخرا (1982) بتحقيق سعيد أحمد أعراب ، وطبع المطبعة الملكية بالرباط .

(4) **كفاية المحتاج بما ليس في الديباج** ، مخطوط الخزانة الحسنية رقم 681 ، ص : 306 .

«يوسف بن يحيى بن عيسى بن عبد الرحمان التادلي ، عرف بابن الزيات . قال الحضرمي : هو الشيخ الفقيه القاضي الأديب مؤلف كتاب **التشوف إلى رجال التصوف** وله تأليف في صلحاء المغرب ، لم يدخل الأندلس ، صحب أبا العباس السبتي ولقي ابن حوط الله والسلالتي ، وشرح **مقامات الحريري** شرحا نبيلا جدا ، وحدث بكتابه **التشوف** الأستاذان الفاضلان أبو القاسم بن الشاط[5] وابن رشيد[6] عن قاضي الجماعة أبي عبد الله محمد بن علي الشريف[7] عنه إذنا . توفي قاضيا برقراقة[8] سنة سبع أو ثمان وعشرين وستمائة» .

وقد وقع الإشكال في تعريف هذا الحضرمي الذي أكثر النقل عن **فهرسته** صاحب نيل الابتهاج . فالشيخ الطلعاء محمد عبد الحي الكتاني قد كتب في الصفحة الأولى من نسخة التشوف التي كانت بيده وانتقلت إلى الخزانة العامة وسجلت فيها تحت رقم ك 56 أن المنقول عنه هو «أبو سعيد محمد بن الأستاذ عبد المهيمن الحضرمي» كتب ذلك سنة 1333هـ ، وأبو سعيد الذي يذكره توفي سنة 787هـ ولكن الكتاني عاد لطرح الإشكال في «**فهرس الفهارس**»[9] ورجّح أن يكون المنقول عنه حضرميا آخر هو القاضي أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الذي كان صاحب البلوي . ونسب إليه عبد الحي كتاب «**السلسل العذب والمنهل الأحلى**»[10] .

= أما مخطوطات «**نيل الابتهاج بتطريز الديباج**» في الخزانتين الحسنية والعامة بالرباط فلا توجد بها ترجمة التادلي ، بينما توجد في الطبعة الفاسية منه ، ص : 386 وبالطبعة اللبنانية على هامش «**الديباج المذهب**» لابن فرحون ، ص : 352 .

(5) توفي أبو القاسم سنة 725هـ ، انظر ترجمته في الديباج ، ص : 261 .

(6) توفي أبو عبد الله بن عمر بن محمد بن رشيد السبتي سنة 721 بفاس . انظر ترجمته في **الإعلام** للعباس بن ابراهيم ، ج 3 ، ص : 250 .

(7) توفي أبو عبد الله محمد بن علي الشريف بمراكش سنة 681 ، انظر ترجمته في **الإعلام** للعباس بن ابراهيم ، ج 4 ، ص : 281 .

(8) وردت في **نيل الابتهاج** المطبوع هكذا : دقداق ، والصحيح : رقراقه أو رجراجة بجيم مصرية .

(9) طبعة فاس ، ج 1 ، ص : 258 .

(10) نشره محمد الفاسي في **مجلة معهد المخطوطات العربية** ج : 1 ، مجلد 10 ص 37 ـ 38 .

اما صاحب «**دليل مؤرخ المغرب الأقصى**»[11] فقد نسب **السلسل العذب** وكذا كتاب **الكوكب الوقاد فيمن حل بسبتة من العلماء والصلحاء والعبّاد** لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر عبد المهيمن الحضرمي ، وظن رحمه الله ، أنه استدرك على صاحب **فهرس الفهارس** تاريخ وفاته حيث ذكر أنه وارد في **لقط الفرائد**[12] ، وهي سنة 787. بيد أن الذي لم يقف صاحب «فهرس الفهارس» على وفاته هو عبد الله بن إبراهيم الحضرمي . أما صاحب **لقط الفرائد** فإنه أثبت تاريخ وفاة أبي سعيد الحضرمي . وبقطع النظر عن الاضطراب الواقع في نسبة الكتابين المذكورين فإننا نجد في كتاب طبقات المالكية[13] المجهول المؤلف ذكرا لصاحب **الفهرسة** التي ينقل عنها أحمد بابا السوداني . فهو القاضي أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الحضرمي ينقل عنه في تراجم شيوخه وأصحابه . ومن شيوخه عثمان بن ليون التجيبي الذي قال عنه الحضرمي «شيخنا الفقيه الجليل (...) كتب للقضاة ببلدنا واستنابوه عنهم (...) ولد بألمرية وبها نشأ وشب واكتهل ولم يرحل عنها بوجه (...) لازمته ثلاثين سنة ، وحفظت بعض تآليفه (...) وأمدني من خزانة كتبه بما انتفعت به ، توفي شهيدا في الطاعون العام عام خمسين وسبعمائة» ، كما نقل عنه في تراجم آخرين من شيوخه كأبي القاسم بن جزي المتوفى عام واحد وأربعين وسبعمائة وأبي القاسم الشريف السبتي المتوفى عام ستين وسبعمائة وأبي البركات البلفيقي المتوفى سنة إحدى وسبعين وسبعمائة . وكانت للحضرمي صحبة مع خالد بن عيسى البلوي المتوفى قبل 780هـ حيث قال عنه البلوي فيما أورده ابن القاضي في «**جذوة الاقتباس**» : «أخي وسيدي وصديقي الشيخ الفقيه القاضي المحدث الفاضل الراوية المقيد المسند محمد بن إبراهيم الحضرمي»[14] . وعلى هذا فمؤلف **الفهرسة** التي نقل عنها أحمد بابا ترجمة التادلي كان معاصرا لمؤلف كتاب «**السلسل العذب**» المهدى للسلطان أبي فارس عبد العزيز المريني المتوفى عام سبعة وستين وسبعمائة . ولكن كنية والده ليست أبا بكر ،

---

(11) **دليل مؤرخ المغرب الأقصى** للمرحوم عبد السلام بن سودة ، ص : 53 و67 .

(12) انظر لقط الفرائد ص : 222 ، ضمن كتاب **ألف سنة من الوفيات** ، تحقيق محمد حجي ، الرباط 1976 .

(13) مخطوط الخزانة العامة : 3928 د .

(14) **جذوة الاقتباس** لابن القاضي ص : 188 ، طبعة دار المنصور بالرباط ص 188 .

ثم إنه معاصر لأبي سعيد بن عبد المهيمن المتوفى عام 787هـ كما أسلفنا . فلا عجب أن يؤدي الأمر إلى الالتباس . ثم إن من شيوخ هذا الحضرمي من أخذوا عن ابن الشاط وابن رُشَيد كأبي القاسم الشريف فيكون سمع منه عنهما كتاب **التشوف** والتعريف بصاحبه .

إن التعريف المنقول عن الحضرمي يتضمن ، على قصره ، معلومات نفيسة عن ابن الزيات الذي لم يجد مكانة في موسوعات الأندلسيين لأنه لم يدخل الأندلس . فالتعريف ينص على أنه لقي الأستاذ أبا محمد عبد الله بن سليمان بن داود بن حوط الله الأنصاري وهو المحدث الحافظ الشاعر النحوي الذي تصدر للقراءات والعربية وأدَّب محمد الناصر بن يعقوب المنصور الموحدي بمراكش ، وكانت وفاته سنة ثنتي عشرة وستمائة . وقد روَى عنه المؤلف خبرا واحدا في مقدمة «**التشوف**» .

أما الشيخ الثاني الذي ذكر الحضرمي أن ابن الزيات قد لقيه فورد في مخطوطات «كفاية المحتاج» التي راجعناها أنه السلالقي ، ونقل عبد الحي الكتاني في النسخة المشار إليها أعلاه أنه السلالقي أو السلالجي . والسلالجي المعروف هو الأصولي أبو عمرو عثمان بن عبد الله الفاسي الذي ترجم له في «**التشوف**» ولم يذكر ما يفيد أنه لقيه . وإن كان قد ذكر أنه قدم مراكش وفيها أخذ عن ابن الإشبيلي ثم رجع إلى فاس للتدريس بها . وذكر أن وفاته كانت سنة أربع وستين وخمسمائة . وحتَّى على فرض أن وفاة أبي عمرو السلالجي قد تأخرت إلى سنة أربع وسبعين حسبما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين[15] فإن القرائن تستبعد أن يكون ابن الزيات لقيه ، فأساتيذه الآخرون متأخرون ، ولا يمكن أن يكون قد أخذ إلا عن الأقران فيكون الذي لقيه ابن الزيات هو المسلاقي فتحرفت إلى السلالقي أو السلالجي ، ونقصد بالسلاقي أبا بكر المترجم في الذيل والتكملة[16] لابن عبد الملك ، وهو محمد بن عبد العزيز بن خلف الليلي ، سكن اشبيلية ثم مراكش و«كان متبحرا في حفظ اللغات والتواريخ والأشعار قديمها وحديثها متقدما في النحو (...) نقله المنصور من بني عبد المومن إلى حضرته مراكش فأنزله في جامعه الأعظم لتدريس ما كان عنده من المعارف» ، مولده سنة احدَى وأربعين وخمسمائة ووفاته سنة احدَى وستمائة .

---

(15) انظر عبد الله كنون : **عثمان السلالجي** العدد 11 من سلسلة «ذكريات مشاهير المغرب» .

(16) **الذيل والتكملة** ، السفر السادس ، ص : 381 ، تحقيق الدكتور إحسان عباس .

أما ابن الأبار فقد ترجم لهذا السلاقي وكناه أبا عبد الله[17] ولكنه ترجم لسلاقي آخر كنيته أبو بكر واسمه محمد بن علي من أهل اشبيلية سكن مراكش وكان عالما بالعربية ووفاته سنة خمس وستمائة[18] .

ومن المحقق أن ابن الزيات أخذ عن أساتيذ غير المذكورين كانوا من قمم العلم في عصره نذكر منهم ، استنادا إلى ما أورده ابن عبد الملك في سفر الغرباء من **الذيل والتكملة**[19] ، أبا موسى عيسى بن عبد العزيز القُزولي الذي كان قطبا في علوم العربية ، وقد ذكر مؤلف **التشوف** أنه سمع منه خبرا يتعلق بوجاج بن زلو اللمطي . وكذلك أخذ ابن الزيات عن أبي القاسم أحمد بن بقي الأموي ، وهو من أهل قرطبة ، ولي قضاء الجماعة بمراكش وخطتي القضاء والمظالم والكتابة العليا فسمع منه الناس . وقد ذكر ابن الزيات في **التشوف** أنه قرأ عليه كتاب **العين** للخليل وروى عنه أخبارا عن ابن بشكوال وربما كان سنده في رواية **مسند** جده بقي بن مخلد . وقد توفي أبو القاسم بن يزيد بقرطبة سنة خمس وعشرين وستمائة[20] .

وقد أثمر أخذ ابن الزيات عن هؤلاء الشيوخ متانة في العربية تظهر في هذا الأسلوب «الجاحظي» الملموس في مقدمة **التشوف**[21] ، بل ان علو كعبه في العربية أقدره على وضع هذا «الشرح النبيل» **لمقامات الحريري** الذي ينسب له ، كما أثمر لديه قدرة أهلته لتولي القضاء ، ومنزعا أدّى به إلى جمع أخبار الأولياء والتصنيف في تراجم الفضلاء والأصفياء .

أما تآليفه في التصوف فالذي بين أيدينا منها هو «**التشوف**» و«**أخبار أبي العباس السبتي**» وقد ذُكر له تأليف آخر في صلحاء المغرب ، ولا نعرف عنه شيئا إلا هذه الإشارة التي نجدها عند أبي العباس الغبريني في «**عنوان الدراية فيمن عرف من**

---

(17) **التكملة** لابن الأبار ، الترجمة 830 من طبعة كوديرا .

(18) نفس المصدر ، ترجمة 594 من طبعة عزت العطار ، وانظر **بغية الوعاة** للسيوطي ج 1 ، ص 160 وص 196 . **والإعلام** للعباس بن إبراهيم ج 4 ، ص : 154 وص 156 .

(19) مخطوط الخزانة العامة بالرباط رقم 3784 د، ص 70

(20) ترجمة في **التكملة** لابن الأبار : 292 ، وفي **برنامج الرعيني** ص : 20 ، **والإعلام** ج 2 ص 135 .

(21) انظر محمد بن تاويت ، **الوافي بالأدب المغربي** ، ج 1 ، ص : 307 .

العلماء في المائة السابعة ببجاية» حيث أورد كرامة في ترجمة أبي عبد الله العربي من شيوخ أوائل القرن السادس الهجري وعقب عليها بقوله : «ووقفت على مثل هذا المعنى في ملخص من **المنتخب المغرب في ذكر بعض صلحاء المغرب**[22] ثم نقل قصة جرت بمراكش تتضمن كرامة حدث المؤلفَ بها أحمد بن حسن عن يعيش بن شعيب السقطي ، والقصة واردة بنصها في **التشوف** ، رواها التادلي عن أحمد بن حسن المذكور عن محدثه يعيش . وليس كتاب **التشوف** مما يخفى على الغبريني ، ولا يمكن أن يكون ذلك الملخص المنقول عنه هو «**اختصار التشوف**» الذي وضعه أحمد بن محمد بن علوان الشهير بالمصري[23] لأن هذا الأخير قد تأخر عن الغبريني . ألا يكون كتاب «المنتخب» من كتب ابن الزيات الضائعة ؟ .

أما **الشرح** الذي وضعه **لمقامات الحريري** فهو من الكتب التي لم يتم العثور عليها كذلك ، ونجد عنوانه الكامل عند الفيروزابادي (729 ــ 817هـ) في كتابه «**البلغة في تاريخ أئمة اللغة**» حيث يقول عن ابن الزيات : «إمام في اللغة والنحو والأدب ، له شرح المقامات الحريرية سماه : **نهاية المقامات في دراية المقامات** وهو أحسن الشروح»[24] وعن الفيروزابادي نقل السيوطي في **بغية الوعاة**[25] . وكفى التادلي فخرا أن يشهد له صاحب **القاموس** بالامتياز في هذا التمرين الذي كلف به الأساتيذ في ذلك العصر وهو شرح **مقامات الحريري** .

إن من المفيد حقا لمن يُقبل على قراءة كتاب **التشوف** أن يعلم لمؤلفه تلك المكانة العلمية حتى لا يحسبه ، وهو دالف بين أخبار الكرامات ، ساذجا بسيطا عامي الفكر ممن تستخفه طلاوة الأخبار أو تنسيه غرابتها صرامة التحقيق . فالتادلي لم يفته أن يُشعر القارئ بوعيه بطبيعة هذه المادة التي جمعها حيث يقول : «**والكرامة لأهل اليقين**»[26] ومع ذلك فقد أخذ للأمر عدته وسلك نهجا واضحا ليجمع مادته . فهو على ما أخبرنا قد شرع في تصنيف الكتاب في شهر شعبان من سنة سبع عشرة

---

(22) **عنوان الدراية** ، ص 50 طبعة بيروت بتحقيق عادل نويهض .
(23) انظر ترجمة ابن علوان في **نيل الابتهاج** ، ص 74 وفي **شجرة النور الزكية** ، ص 226
(24) الترجمة 421 طبعة دمشق 1972 ، تحقيق محمد المصري .
(25) الترجمة 2200 من طبعة القاهرة بتحقيق أبي الفضل ابراهيم .
(26) انظر الفصل الأول من الباب السابع من مقدمة كتاب «التشوف» .

وستمائة وفرغ من جمعه يوم الجمعة الثاني عشر من ذي القعدة من نفس العام. فيكون قد قضى في التصنيف أقل من أربعة أشهر، ولعله يقصد تحريره أما جمع مادته فلربما استغرق وقتا طويلا، فقد ذكر فيه أخبار مائتين وتسعة وسبعين من الرجال والنساء من بينهم تسعة عشر من المجاهيل ومترجمون بعضهم قديم الوفاة. وأما من عُلم تاريخ وفاته فأولهم محمد بن سَعدون القروي المتوفى سنة خمس وثمانين وأربعمائة وآخرهم أبو علي عمر بن علي المتوفى عام ستة عشر وستمائة. كان هؤلاء المترجمون بأغمات ومراكش وأعمالها وذكالة وركراكة وتادلا وهسكورة وسجلماسة وفاس ومكناس وسلا وسبتة ودرعة وسوس الأقصى وتلمسان وبجاية وغيرها. ومن هؤلاء الرجال من هو علم معروف المكانة شهير من طريق غير طريق ابن الزيات ولاسيما الأندلسيين، ومع ذلك فإن أخباره حتّى عن بعض هؤلاء قد انفرد بها واعتمده فيها من جاء بعده، ومنهم آخرون لا يعرفون إلا عن طريقه.

وقد أخذ هذه الأخبار عما يزيد عن خمسين من الرواة بلفظ «سمعت فلانا» و«حدثني فلان» وربما قال: «كتب إلي بذلك فلان»، ويقل في هؤلاء الرواة من نجد له ذكرا في كتب التراجم. ويظهر بالاستقراء أن معظمهم من إخوان المؤلف في طريق القوم ومن أصحاب الشيوخ المترجمين أو من ذويهم. ويظهر بالاستقراء أيضا أنه أكثر من الرواية عن أشخاص معينين في أخبار مناطق معينة، كأخبار سجلماسة عن محمد بن أبي القاسم، وأخبار سبتة عن أحمد بن إبراهيم الأزدي، وأخبار تادلا عن عبد الله بن موسَى، وأخبار ذكالة عن داود بن عبد الخالق الخ. وقد روي بعض مخبريه عن طبقة أخرى من الرواة بالنسبة للجيلين الأولين من المترجمين. وهناك طائفة من المترجمين عرفهم المؤلف وجلس إليهم وراقب أحوالهم بنفسه. وقد سلك في نهجه سبيل التحري وشهد له بذلك النقاد، فنرَى ابن عبد الملك يذكره عرضا في ذكر عارض لأبي يعزَى في ترجمة أبي الحسن بن الصائغ فيحليه بالتاريخي العدل[27]. ونجد أبا زيد الثعالبي (785 — 875) يصفه بالموثق المحدث الثقة الصدوق[28].

---

(27) سفر الغرباء من **الذيل والتكملة**، ص 198.

(28) انظر ترجمة يوسف بن يحيَى بن الزيات في **الإعلام** للعباس بن ابراهيم، ج 10، ص 394.

غير أنه لا سبيل إلى إنكار ما يقر به المؤلف نفسه في مقدمة كتابه حيث ذكر أن قصده من تأليف الكتاب هو «إعلام كثير ممن خفي عنهم من كان بحضرة مراكش من الصالحين ومن قدمها من أكابر الفضلاء» . فالرجل ذو قضية . وقضيته تتصل إما بإظهار مدينة بين مدن أخرى أو بإبراز ظاهرة الصلاح مقابل ظاهرة أخرى ، ولربما قصد إلى الأمرين معا وهما وجهان لواقع واحد هو استفحال العمران في مراكش خلال النصف الثاني من القرن السادس الهجري وما صاحبه من العواقب المتناقضة المترتبة عنه بالضرورة .

وهناك عناصر لابد من إدخالها في الاعتبار عند التعرض لظرفية تأليف كتاب **التشوف** ، عناصر يرتبط بعضها بوقائع ذات صدى عميق مثل هزيمة العقاب . وعناصر أخرى يمكن استقاؤها من بين ثنايا النص ، وكلها توحي بأن الجيل الذي عاش بمدينة مراكش النصف الثاني من القرن السادس صار في بداية القرن السابع يشعر أن الأحوال في تبدل وانقلاب وأن «رجال الفضل والصلاح» قد ولى زمنهم . فلا عجب أن يقع الاهتمام بأخبارهم ، وكل هذه العناصر تستوجب تحليلا لسنا بصدده في هذا التقديم الوجيز . وما نظن أن مؤلف كتاب الاستقصا قد أراد أن يربط بين هذا التأليف وبين ظرفية السنة التي وقع فيها عندما قال : «وفي سنة سبع عشرة وستمائة كان الجراد والقحط والغلاء الشديد بالمغرب وفيها ألف الفقيه أبو يعقوب يوسف بن يحيَى التادلي المراكشي الذي عرف بابن الزيات كتابه المسمَّى بـ«**التشوف إلى رجال التصوف**» .

ويجوز لنا أن نتساءل عما إذا كان التادلي قد ترجم لجميع الزهاد والصالحين الفضلاء في المنطقة التي اهتم بها في المدة التي تناولها . فلماذا لم يدرج في كتابه ترجمة القاضي عياض مؤلف **الشفاء** رغم «منحاه الزهدي»[29] ، ولماذا لم يترجم للسهيلي صاحب **الروض الأنف** ؟ وماذا يقصد عندما يذكر أن الفقهاء قد ظهر عوارهم بصدد قضية **الإحياء** ؟ .

---

(29) انظر ماهر زهير جرار : مقدمة تحقيق **الغنية** (فهرسة شيوخ القاضي عياض) ، طبعة دار الغرب الاسلامي بيروت وقد تنبه غير واحد إلى غياب القاضي عياض عن رجال **التشوف** ، انظر كتاب اظهار الكمال في مناقب سبعة رجال للعباس بن ابراهيم مخطوط الخزانة الحسنية رقم 232 وانظر الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصَى ج 1 ص 311 .

ومما لا شك فيه أن ظهور عدد من الأشخاص الفضلاء والزهاد الذين يشبهون في أحوالهم رجال التشوف قد سبق في مراكز عمرانية أخرى كفاس وأغمات وغيرهما ولكن التصنيف في أخبارهم قد تأخر بالمغرب ،. وإن كان قد بلغ نضجه في المشرق مع أبي نعيم المتوفى سنة (430هـ) في كتابه **حلية الأولياء** هذا الكتاب الذي تأثر به ابن الزيات وغيره من أصحاب المناقب . إلا أن ابن الزيات ليس أول مصنف مغربي في هذا الباب بل إنه يذكر لنا **تأليفا في صلحاء زكراكة** دون أن يذكر مؤلفه ، ومما يستغرب له أن مؤلف **التشوف** لم يتعرض قط لذكر مصنف مغربي في هذا الباب مع العلم بأن هذا الكتاب كان معروفا قبل نهاية القرن السادس الهجري فقد ذكره محي الدين بن عربي في «**الفتوحات المكية**» في الباب الثاني والأربعين في معرفة الفتوة والفتيان حيث قال : «وأخبرني أبو عبد الله محمد بن القاسم بن عبد الكريم التميمي الفاسي قال مخبرا عن أبي عبد الله الدقاق : كان بمدينة فاس وتذاكروا الفعل بالهمة فقال أبو عبد الله الدقاق : فزت بواحدة ما لي فيها شريك ، ما اغتبت أحدا قط ولا اغتيب أحد بحضرتي قط . فهذا من الفعل بالهمة» إلى أن قال عن الدقاق : «وكان سيد وقته في هذا الباب . خرَّج مناقبه شيخنا أبو عبد الله ابن عبد الكريم المذكور آنفا في كتاب **المستفاد في ذكر الصالحين والعباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد**» وذكر ابن عربي في باب الوصايا من **الفتوحات** (ج 4 ص 541) حديثا سمعه من هذا المؤلف أي أبي عبد الله محمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الكريم التميمي بالمسجد الأزهر بعين الخيل بمدينة فاس سنة إحدى وتسعين وخمسمائة . وفي مكان آخر من نفس الباب (ج 4 ص 549) قال ابن عربي : «سمعت محمد بن قاسم بن عبد الرحمن بن عبد الكريم التميمي الفاسي بمدينة فاس العدل أظن في سنة أربع وتسعين وخمسمائة» . وفي تكملة الصلة لابن الأبار ترجمة لهذا المؤلف حيث قال : «... محمد بن قاسم بن عبد الرحمان بن عبد الكريم التميمي ، من أهل فاس يكنّى أبا عبد الله سمع من أبي الحسن بن حنين وغيره ورحل إلى المشرق رحلة حافلة أقام فيها خمسة عشر عاما ولقي نحوا من مائة شيخ أكثر من الرواية عنهم (...) ولم يكن بالضابط ، وقفت بخطه على أوهام وأغلاط ، وقفل إلى بلده فحدث وأخذ عنه (...) وتوفي ببلده آخر سنة ثلاث أو أول أربع وستمائة»[30] .

(30) الترجمة 1064 من طبعة كوديرا و1720 من طبعة عزت العطار.

وجاء في ترجمته عند ابن عبد الملك : «كان محدثا حافظا ذاكرا للحديث ورجاله وتواريخهم وطبقاتهم ولم يكن في ضبطه بذلك ، وحدث بالمشرق والمغرب . ومن مصنفاته كتاب **المستفاد في مناقب العباد بمدينة فاس وما يليها من البلاد** ، سفران ..»[31] .

ولكن مؤلف «**جنى زهرة الآس**»[32] وهو أبو الحسن علي الجزنائي الذي كان حيا سنة 766هـ ذكر كتاب **المستفاد** مرتين : مرة في ترجمة دراس بن إسماعيل ولم يشر إلى مؤلفه ، ومرة أخرى عند التعرض لكرامات أبي جيدة وقال : «ومن أراد الوقوف عليها فليطالع كتاب **المستفاد في ذكر الصالحين في فاس والعبّاد** الذي ألفه الشيخ الراوية أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الفندلاوي المعروف بالكتاني» .

وأبو عبد الله هذا الذي ذكره الجزنائي شخص غير أبي عبد الله التميمي بل هو الفندلاوي المعروف بابن الكتاني وله ترجمة في **التشوف** ، ووفاته فيه سنة سبع وتسعين وخمسمائة .

وممن نقلوا عن كتاب **المستفاد** ابن القاضي (1025هـ ـ 1616م) في «**جذوة الاقتباس**» وابن عيشون (1109هـ ـ 1697م) في «**الروض العاطر الأنفاس بأخبار الصالحين من أهل فاس**»[33] .

وأما ابن القاضي فنسب «**المستفاد**» في عدة مواضيع لمحمد بن عبد الكريم الفندلاوي المعروف بالكتاني ، بل انه ترجم لهذا الأخير وقال عنه : إنه صاحب «**المستفاد**» ، وجعل وفاته سنة خمس وتسعين وخمسمائة[34] . ولكنه قال في ترجمة محمد بن أحمد البيراني التجيبي المتوفى بفاس بعد الأربعين وخمسمائة : «وقال ابن غرتون : ذكره شيخنا الحاج محمد بن قاسم بن عبد الرحمان بن عبد الكريم التميمي في كتابه المسمى **بالمستفاد في مناقب العباد من أهل فاس وما يليها من البلاد**»[35] .

---

(31) سفر الغرباء من **الذيل والتكملة** ، ص : 125 .
(32) **جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس** ، المطبعة الملكية ، 1967 .
(33) مخطوط الخزانة العامة رقم د. 2409
(34) **جذوة الاقتباس** ، ص 220
(35) نفس المصدر ، ص 258

أما ابن عيشون فينسب «**المستفاد**» لأبي عبد الله التميمي . فقد قال في ترجمة أبي ميمونة دراس بن إسماعيل المتوفى سنة سبع وخمسين وثلاثمائة : «ممن حدث بأخباره الشيخ الفاضل المحدث الحافظ الراوية المؤرخ أبو عبد الله التميمي ، وصدر به في كتاب **المستفاد**» (ص 3) وكلما نقل عنه قال : «قال أبو عبد الله التميمي ....» .

إن الاستناد إلى ما ورد في «الفتوحات» لا يترك مجالا للشك في نسبة الكتاب للتميمي ، فابن عربي قد لقي مؤلفه وسمع منه ولقي أبا عبد الله الكتاني وقال عنه : «ورأيت أبا عبد الله الكتاني بمدينة فاس إماما من أئمة المسلمين في أصول الدين والفقه» (ج 4 ص 80) .

ولا تخفَى الملابسات التي جعلت المتأخرين يضطربون في نسبة الكتاب . فابن الكتاني معاصر للتميمي وكلاهما فاسي وكلاهما من العلم والاهتمام بحيث يقدر على تأليف مثل هذا الكتاب ويظن به أن يفعل . بل ربما كان البعض أميل إلى نسبته للفندلاوي الزاهد الأصولي منه إلى نسبته للتميمي المحدث ، ثم إن كنية كليهما أبو عبد الله واسمه محمد واسم جده أو والد جده عبد الكريم ، وربما ورد في «**التشوف**» ما يفيد أن الكتاني مهتم بأخبار العُبّاد وكرامتهم حيث يقول التادلي «سمعت أبا العباس أحمد بن ابراهيم الأزدي يقول : سمعت أبا عبد الله الكتاني يقول : «نُقلت كرامات أبي يعزَى نقل تواتر»[36] .

إن التادلي لم يشرع في كتابه «**التشوف**» إلا بعد مضي أكثر من عقدين على مرور ابن عربي بفاس وأكثر من عقد على وفاة التميمي ، ومع ذلك لا نجد في «**التشوف**» ذكرا لكتاب **المستفاد** ولا لمؤلفه . إلا أننا نجد ابن الزيات يترجم لعدد من الفاسيين الذين ينقل كل من ابن القاضي وابن عيشون بعض أخبارهم عن «**المستفاد**» كأبي حزرهم والسلالجي وأبي عبد الله التاودي وأبي جبل وابن محسود والهواري ، كما اتفق التميمي وابن الزيات في الترجمة لأبي يعزى . لا شك أن هؤلاء هم الكبار الذين لابد أن يهتم بهم صاحب **التشوف** وإن لم يكونوا من عمل مراكش . بل إن التادلي والتميمي سمعا معا خبرا من أخبار أبي يعزَى من نفس الراوي وهو أبو حسن بن محمد الصواف الغافقي صاحب أبي مدين شعيب الأنصاري .

---

(36) انظر ترجمة أبي يعزى (رقم 77) في **التشوف**

ويتضح لمن تتبع ما نقل عن كتاب «**المستفاد**» أن أسلوبه في تأليف أخبار عبّاد فاس وأعمالها هو الأسلوب الذي سار عليه ابن الزيات في تأليف أخبار رجال مراكش وأعمالها. فهل هناك علاقة مّا بين تأليف الكتاب الأول وتأليف الكتاب الثاني ؟ فهل يكون تجاهل التميمي في كتابه «**المستفاد**» لعباد الجهات التي اهتم بها التشوف هو ما دفع ابن الزيات لتأليف كتابه ؟ أو هل يكون «عدم الضبط» الذي نعت به التميمي محققون كابن الأبار وابن عبد الملك هو ما جعل التادلي يتجاهله ؟.

ومهما يكن الأمر فإننا لا نستطيع أن نفترض أن التادلي كان يجهل وجود كتاب **المستفاد** بل إننا نجد أخبارا أسندها صاحب المستفاد (حسب نقول ابن عيشون) أوردها ابن الزيات بنصها غير مسندة ، وكلما أورد خبرا منها صدره بقوله : «وحدثوا عنه». أي عن المترجم المخبَر عنه.

وفيما عدا ذلك فمادة «**التشوف**» أصل لا مصادر لها إلا رواته ، غير أن من يود الاستفادة من هذه المادة في أي اتجاه كان من اتجاهات البحث لابد أن يضطر إلى تجاوز الرواية إلى مضمونها وسياق انتاج هذا المضمون وموقف المؤلف منه ، وخلفيات اختياره لمشروعه ومزوديه. إلا أن هذا التجاوز يتوقف على معرفة مزيد من المعلومات عن حياة المؤلف لا في جانبها العلمي فحسب بل في جوانبها العامة ولاسيما في اتصاله بتيار التصوف في مدينته. ومن حسن الحظ أننا نجد بين ثنايا الأخبار الواردة في الكتاب إشارات تتعلق بهذا الجانب.

فاسم المؤلف كما ورد إلينا هو يوسف بن يحيَى بن عيسَى بن عبد الرحمن ويلاحظ أن اسمه واسم أبيه واسم جده من الأسماء الشائعة في ذلك العصر وليس فيها بربرية على غرار ما في معظم أسماء رجال التشوف البدويين ، وقد وردت إشارات تفيد أن بعض الناس في ذلك العصر كانوا متحمسين لإزالة هذه العجمة من أسمائهم ، فهذا كتاب الأنساب[37] يذكر لنا مثلا أن إبراهيم بن جامع كان اسمه الأول هو يرزجن بن عمر.

فالمؤلف تادلي أي أنه ضارب بأصله في أعماق بادية من أهم المناطق وأغناها في ذلك العصر وهي التي يخترقها وادي وانسيفن (أم الربيع اليوم) ويلتقي فيها برافده

---

(37) يدرك هذه الظاهرة من تمعن في **كتاب الأنساب** وكتاب **أخبار المهدي** للبيذق.